

وانصرفت وبينما هي تمشي في الشارع تعرنلت قدمها وتعثرت فكادت أن تسقط فنظرت ما الذي عرقلها فوقعت عينها على ورقة فرفعتها فإذا هي عشرون جنيهاً فأخذتها وبحشت عن مكان للدجاج فوجدت دكاناً مفتوحاً فأسرعت إليه قبل أن يغلق بلحظات واشترت لأولادها دجاجة حتى أكلوا وشبعوا وفرح الله عنهم.

إخواني، كم من مغبوط بنعمه هي داؤه، وكم من محروم من دواء حرمانه شفاؤه، لو استخبر المنصف العقل والنقل لأخبره أن الدنيا دار مصائب وشروء ليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بكدر فما نظنه في الدنيا أنه شراب هو في الحقيقة سراب، وعمارتها وإن حسنت خراب إنها على ذا وضعت لا تخلو من بلية ولا تصفو من محنة ورزية لا ينتظر الصحيح فيها إلا السقم والكبير إلا الهرم فتق ربك والجا في أحوالك إليه وتوكل في كل الأمور عليه، وارض بما قسم الله لك واشكر نعمه يزدك.

الْفَضْلُ السَّالِسُ

الهداية من الضلال

من لطف الله بعبده أن يهديه إلى طاعته، وأن يلهمه ذكره ومحبته وأن يحول بينه وبين الفسوق والعصيان، فيحيي قلبه بالإيمان، وينقذه من ظلمات الغي وسكرات الغفلة ومهاوي الضلال ومواطن الشبهات والشهوات، فإذا وجدت في قلبك نوراً وهداية فاشكر الله وسله المزيد من فضله فالهداية تزداد بازدياد الإيمان قال ربنا في محكم آياته ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآلَهُمْ قُتُوبُهُمْ﴾ (مجاد: ١٧). وقال تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِي شَيْءٍ ءَامِسُونَ رَبُّهُمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: ١٣).

وهذا أعظم نعم في الوجود، وأخطر قضية في حياة الإنسان أن يهتدي إلى صراط الله المستقيم وعلى قدر الهداية يكون القرب من الله والتنعم بذكره وعبادته وتأمل جيداً

كيف أوجب ربنا علينا أن نطلب منه الهداية كل يوم سبع عشرة مرة فنقول في كل ركعة من صلاة الفريضة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الْقَائِمَةُ: ٦). ولو سألنا من العبد كل النعم وبقيت هذه النعمة وحدها لعجز الإنسان عن شكرها، وهل هناك نعمة أعظم وأجل وأهم من أن يهديك الله إلى صراطه المستقيم؟!، سر رجل برجل أعمى أشل أجذم، وإذ به يردد ويقول الحمد لله الحمد لله، فقال له هذا المار: علام تحمد الله؟ أنت أعمى لا ترى، أشل لا تتحرك، أجذم يقدرك الناس ولا ينظرون إليك فعلام تحمد الله؟! فقال: أحمد الله أن أعطاني قلباً يذكره ويوحده لا قلباً أعمى كقلبك!!.

أحبتي وإخوتي: تعالوا نقلب صفحات من لطف الله بخلقه لعل كل واحد يستشعر لطف الله به في خاصة نفسه فيتمسك بدينه، ويكثر من شكر الله وحده، ويثبت على طاعته ويعظم حبه لربه.

لا تعذر المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

نعم لا تلمني على حبي حتى يكون قلبك كقلبي، وإليكم بعض الأمثلة لعلها تبعث في القلوب الأمل وتظهر للنفس عظيم وجليل لطف الله وفضله سبحانه وبحمده.



١- قَتَلَ ثُمَّ قَتَلَ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ:

هذا مثال خالد يبقى عبر الزمان خالداً بخلود سنة النبي ﷺ وليس الموقف مجرد حكاية وقصة بل للعظة والعبرة والتأسي والاعتداء فمهما كثرت ذنوبك وعظمت خطاياك فرحمة الله أوسع وفضله أعظم، ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمّل به مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا وصل إلى نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم: أي حكماً، فقال: قيسوا ما بين الأرضيين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبطته ملائكة الرحمة^(١). فانظر إلى لطف الله بهذا الرجل كيف هيأ له الأسباب حتى أنجاه من العذاب وتاب عليه وقبل توبته، لذلك مهما كثرت ذنوبك فاستغفر وتب منها فإن ربك تواب رحيم.

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

٢- نفوس مقتولة أحيها الله:

كم من رجل أراد قتل نفسه فحال الله بينه وبين ذلك لأن هناك هداية وسعادة في انتظاره، وإلحكم شواهد من ذلك.

يقول أحد الإخوة مررت في أحد الطرقات وإذا بي أرى رجلاً يصنع حركات غريبة وعجيبة فأسرت إليه لأرى ذلك الحال الغريب، نظرت فإذا بي أراه يمسك بسكين ويريد أن يقتل نفسه وحاولت منعه بقوتي، وجعلت أذكر له آيات من القرآن وأحاديث من السنة ترهب من الانتحار وقتل النفس، فنظر إلي وقال لي صارخاً: ما الذي جاء بك؟ دعني، اذهب واتركني، ولكنني شجعت نفسي لإنقاذ هذا الإنسان وكررت عليه كلام الله وكلام رسول الله فقد خطر في عقلي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسلني إلى هذا المكان لإنقاذ هذا الإنسان، انقضضت عليه سريعاً وأمسكت بيده ثم صرخت فيه قائلاً، لقد جربت المعاصي والسيئات سنين فلم تجد إلا ذلك، فهلا جربت الطاعة جرب أن تطيع الله وسوف تسعد والله، وسوف تنسى همومك فهذا قليلاً ثم قال: لنجرب معكم، ثم تاب إلى الله ورجع إليه وهو والله الآن من خيرة التائبين بل إنه بعد شهر واحد من توبته اهتدى على يديه بفضل الله قرابة ثلاثين شاباً، كلهم هداهم الله على يديه فسبحان من أحيانا نفساً لتحيي نفوساً أخرى وتسعد.

مشهد آخر قال الشاب صاحب القصة مر عشرون خريفاً من عمري وأنا بظلام دامس أتعطع عطشاً لا أحس للدنيا طعماً، المال كثير أخلاقي كثير ماذا ينقصني؟ في نفسي جوعة وفي صدري ضيق، ماذا يشبع تلك الجوعة ومن ذا يشرح هذا الضيق؟

لم تشبع نفسي قط، معازف لم تشرح صدري على العكس تمامًا فالجوعة زادت والضيق ازداد بدلت أخلاتي سافرت وعدت سهرت كثيرًا وشربت، هوت كثيرًا وتعبت، والجوعة دائمًا تزداد والضيق كذلك أحسست كأني مسجون في دنياي، وأن الأرض برحابتها ضاقت فكرت كثيرًا وطويلاً وأخيرًا ظهر الحل الآن سأشعر بالراحة هذه سكينتي بيدي تلمع باسمه راضية عن هذا الحل، النامس هجوع والأهل نيام لم يبق سوى لحظات وأعيش ساعات الراحة.. لكن في تلك اللحظات وسكينتي في يدي تقترب من قلبي الميت جاء من أقصى الصمت صوت بسعي ويقول: الله أكبر، الله أكبر سقطت سكينتي من يدي، وتحرك قلبي الميت وكأنه كان في غيبوبة، واستيقظ بعد طول سبات، ويح نفسي ماذا جد؟ أغريب هذا الصوت؟ عشرون خريفًا تسمعه أما أحسست معناه إلا الآن، وشرعت أحقق رغبة نفسي بإجابة هذا الصوت أخذت ماء وتوضأت أسلت الماء على وجهي المرهق، فارتاح وأراح براحتي نفسي، وخرجت إلى الشارع متجهًا نحو المسجد، الكون مخيف بهدوئه لا صوت لا ضوضاء، دخلت المسجد مع إقامة صلاة الفجر، دخلت في الصف مع الناس طراز من الناس لم أعهده بحياتي، وجوه بيضاء يشع منها نور، ونفوس طيبة مرتاحة تقدم من بين الناس إمام أقبل عليهم بوجهه يحثهم على تسوية الصف وشرعت أصلي خلفه، ونفسي مرتاحة، وصدري منشرح، بدأ يقرأ آيات وأنا أنصت، في تلك اللحظات نزلت دمعة أحسست ملوحتها وشعرت بلسعتها، أجهشت ببكاء صادق صنع في نفسي أزيزًا كأزيز المرجل، فنزل الدمع غزيرًا وسال على خدي وسقى أرضًا جديبا في قلبي الميت، فأحيا بهذا الدمع بعد

كلام الله موت فؤادي، وكان بمعية هذا الغيث صوت الرعد صوت نحيلي ويكاثني من خشية رب الناس^(١).

٣- لحلف عجيب بأحد العصاة:

ونبدأ القصة من نهايتها، ها هو شاب في ثياب الإحرام، تبدو ملامح الصلاح على وجهه ولكن أحد الدعاة ينظر فجأة فيرى شيئاً عجيباً في جلدة بطنه، إنها ثلاث ثقب من أثر عمليات جراحية، يبدو شكلها مخيفاً مفرعاً، فقال له الشيخ: مالك؟ ما قصتك؟ أخبرني، فقال: أعانك الله أن تتحمل حديثي، قلت: حياك الله أخبرني بأمرك فقال: والله لقد عشت سنين في الضلال، أسير في دروب الغواية وأتخبط في ظلمات التيه، لا أحس للدنيا طعمًا، ولا أجد لنفسني راحة أو سكينًا، والله ما كنت أعرف أن هناك بعث ولا نشور، والله ما نصحتنا أحد، وما وجهنا أحد من الناس لفعل الصالحات فطلاب العلم عندنا متشاجرون مختلفون، والله إن هذا الذي تراه في بطني كله من الانتحار، شبابي قضيته في غرفة العناية المركزة.

مرة من المرات أخذت السكين وبقرت بها بطني أريد أن أنهي حياتي التي عشت فيها بين الفواحش والمحرمات والمعاصي والمخدرات، والخمور والفجور، أردت أن أنهي تلك الحياة المظلمة المضطربة، ولكني لم أمت لأن الله لم يرد ذلك، وبعد ذلك بمدة ركبت سيارتي وأسرعت بقوة أريد التفحيط فوق لي انقلاب وما شعرت إلا وأنا في العناية المركزة ثم عوفيت بعد أشهر ولم أمت لأن الله ما أراد لي أن أموت، وبعد ذلك بمدة صعدت سطح البيت فألقيت بنفسي من فوق السطح أريد الهلاك والموت، وما

(١) مواقف إيمانية (٤١٧-٤١٩).

أراد الله لي أن أموت، تكسرت عظامي وأعدت فترات طويلة عن الحركة وما انعظت بذلك، قال: وأخيراً لما يئست من هذه المحاولات كلها أخذت المسدس، فوضعت على صدري، ورميت نفسي بالرصاص ودخل الرصاص في جسمي حتى خرج من الجهة الأخرى، وصرت في غيبوبة لمدة سنة وما يقرب من ثمانية أشهر، لا أعلم بشيء ولا أحس بشيء، ظلمت مدة في المستشفى وعوفيت ولم أمت لأن الله لم يرد لي أن أموت، ثم أدركتني رحمة الله وتبت إليه بعد أن ذقت مرارة العصيان فالحمد لله^(١).

٤- من الغناء والسهر إلى هداية البشر:

حدثني أحد إخواني الصالحين^(٢)، أحسبه كذلك والله حسيبه قال: مر أحد الإخوة الدعاة يوماً في بعض الطرقات فوجد مجموعة من الشباب، اجتمعوا على غناء وفحش في الأقوال وجعلوا يصفقون بأيديهم وهم يجلسون حلقة ويتمايلون طرباً وقام واحد منهم وسط الحلقة يتراقص ويغني، فلما اقترب منهم هذا الداعية وعمد إلى ذلك الراقص بينهم واقترب من أذنه وجعل يردد بصوت هادي، قول الله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ زِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (طه: ١٢٤). ثم مضى وتركهم كما هم عاش هذا الداعية وقتاً من الزمان يدعو إلى الله عز وجل، وبينما هو يخطب الجمعة يوماً أدى الصلاة وانطلق عائداً إلى بيته، ثم مر بأحد المساجد فإذا بواعظ يلقي على الناس، بعد الخطبة موعظة مؤثرة أنصت ثم أنصت فإذا الناس يبكون من أثر الموعظة، فسارع إلى دخول المسجد لسمع تلك الموعظة البليغة ولما دخل وجد الناس في إنصات عجيب، وبكاء ونحيب فقال في نفسه، ما أبلغه من خطيب لعل بعد الموعظة

(١) محاضرة مسجلة بعنوان شجاعة تائب.

(٢) التفتيب به بمدينة الدوامي بالسعودية واسم مروي.

أخذ منه موعدًا لإلقاء موعظة في مسجدنا، وبعد انتهاء تلك الموعظة التي حركت قلبي، وأسالت دمعِي ذهبت مسرعًا إلى ذلك الأخ الواعظ، وأردت أن آخذ منه موعدًا فلما نظرت إليه ورأني تهلل في وجهي وقام إلي والتزمني فتعجبت وقلت: هل تعرفني يا شيخ، قال نعم أعرفك جيدًا قلت: عذرًا ولكني لا أعرفك وما رأيتك في حياتي إلا الآن، قال: بلى قد رأيتني قلت: أين ومتى؟ قال: ألا تذكر يومًا مررت فيه ببعض الشباب وهم يغنون ويرقصون فاقتريت من الواقف بينهم وهم جلوس ووعظته ببعض الآيات قال: نعم أذكر ذلك، فقال: أنا ذلك الشاب الذي وعظته وقد هداني الله بكلماتك تلك فجزاك الله عني خيرًا.

قلت وهذه القصة تشبه قصة توبة زاذان الكندي التي ذكرها الإمام ابن قدامة في كتاب التوابين حيث قال: روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مر ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة فإذا فتيان فساق ند اجتمعوا يشربون، وفيهم مغن، يقال له زاذان يضرب ويغني وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله وجعل الرداء على رأسه ومضى فسمع زاذان قوله فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وأي شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى. فقام وضرب العود على الأرض فكسره ثم أسرع فأدرك عبد الله بن مسعود، وجعل المنديل في عنقه نفسه، وجعل يبيكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود وجعل يبيكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عز وجل، فتاب إلى الله عز وجل من

ذنبه، ولازم عبد الله بن مسعود وأخذ عنه حفظاً من العلم حتى صار إماماً في العلم وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما^(١).

وفي هذا درس مهم جداً وهو أن كلمة واحدة قد يحيي الله بها القلوب فألق على الناس أطايب النصيح، والهج بينهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وادع إلى الله بسلوكك وأخلاقك، ومع الإخلاص ستفاد لك القلوب، وتنال أجر كل من عمل صالحاً بسببك كما قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢)، وكذلك قال ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»^(٣)، وبذر للخير خصلة واغرس للهدى أثراً وسوف تنال أجرك كاملاً سواء أستجيب لك أم لم يستجب، فيكفيك أنك دعوت فاحذر أن تسكت عن منكر تراه، فلما أن تزل المنكر وإما أن تزول أنت عنه.

٥- لُطْفُ وَإِمْهَالُ لَيْسَ لِهَما مِثَالُ:

هذه قصة تستشعر وأنت تظالعها من سعة رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ فَضْلِهِ يقول صاحب القصة: كنا مجموعة من الشباب ندرس في إحدى الجامعات وكان بيننا صديق عزيز اسمه محمد، وكان يحبي لنا السهرات ويحيد العزف على الناي حتى تطرب أذاننا ونفوسنا والمتفق عليه بيننا أن سهرة بدون محمد سهرة ميتة لا أنس فيها، ومضت بنا الأيام على هذه الحال ثم كانت بداية الأحداث الساخنة، كانت البداية يوم أن جاء محمد

(١) «كتاب التوازين» (ص: ١٣٠).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٧٤).

(٣) رواه مسلم برقم (١٨٩٣).

إلى الجامعة وقد تغيرت ملامحه وظهرت عليه آثار السكينة والخشوع، فجاءه أحد الشباب وقال له: يا محمد ماذا بك، كأن الوجه غير الوجه ما الذي جرى؟! فرد عليه محمد بلهجة هادئة واثقة: لقد طلقت الضياع والخراب، وتبت إلى الله عز وجل مما كنت فيه من معاص وسيئات، فذهل الشاب من كلامه وقال له: من الجدير بي أن أخبرك أن عندنا الليلة سهرة لا ينبغي أن نضيعها وسوف يأتي إلينا ضيف تحبه إنه المطرب فلان فقال له محمد: أرجو أن تعذرنى فقد قررت أن أقاطع هذه الجلسات الضائعة فازداد اندهاش الشاب وذهوله مما سمع ونظر إلى محمد بنظرة استغراب وتعجب، فقال له محمد: اسمع يا فلان، أخبرني كم بقي من عمرك؟ كم بقي لك من أيام في هذه الدنيا؟ ها أنت تعيش قوة بدنية وعقلية، وتعيش حيوية الشباب، فإلى متى ستبقى مذنبًا غارقًا في الذنوب، والمعاصي؟ لم لا تغتنم هذا الخير في أعمال الخير والطاعة، وتناثر كلمات من نور من قلب محمد على هذا الشاب الذي يخاطبه وواصل الوعظ، قائلاً يا فلان إلى متى تظل بعيداً عن الله؟! إلى متى تعرض عن الصلاة وعن عبادة الله أما علمت أنك قد تموت اليوم أو غداً؟! فكم من مغتر بشبابه يملك الموت عند بابه!! وكم من غافل عن أمره، ينتظر فراغ شهره، وقد آن انصرام عمره!! كم من غارق في لهوه وأنسه وقد دنا غروب شمسهِ!! أما تدري أن هناك حساب وسوف تحاسب عن شبابك وعن عمرك ومالك؟ قال رسول الله ﷺ: لا نزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه، وعن شبابهِ فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم.

يقول هذا الشاب وتفرقنا على ذلك وكان من الغد أول أيام شهر رمضان، وفي ثاني أيام رمضان ذهبت إلى الجامعة لحضور محاضرات السبت، فوجدت أن الشباب وجوههم متغيرة، فقلت: ما بالكم؟ ماذا حدث؟ فقال أحدهم: إن محمدًا أخرج

بالأمس من صلاة الجمعة صدمته سيارة بسرعة فمات، مات وهو صائم، وهو خارج من صلاة الجمعة، قال ذلك الشاب فذهبنا إلى بيت محمد وصلينا عليه الجنائزة بعد صلاة عصر ذلك اليوم وكان مشهد دفنه مؤثراً جداً، تدمع له العيون وتنفطر له القلوب.

وقد كانت في حياتك لي عظمات فأتت اليوم أو عظم منك حيا

ورؤية القبور وزيارتها تذكر الإنسان بالآخرة، قال رسول الله ﷺ: كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمَن أراد أن يروى القبور فليزرها فإنها تذكر بالآخرة^(١).

رجع صاحبا إلى بيته مهموماً حزينا كسيراً، وكان عليه من الغد امتحان في الجامعة فلم يستطع طوال الليل أن يفتح كتاباً أو أن يحفظ كلمة فقرر أن يعتذر عن الامتحان وأن يذهب في الصباح إلى الأستاذ ليؤجل موعد الامتحان وفي الصباح ذهب إلى إدارة الجامعة ليقدم الاعتذار عن الامتحان، ولكن الشاب فوجئ بخبر أليم فرغ من أجله فرغاً شديداً، فإن هذا المدرس الذي ذهب إليه تبين أنه أصيب بأزمة قلبية وتوفي بالأمس فأصيب هذا الشاب بغم على غمه، ومع تنابع الهموم وكثرة الآلام رأى هذا الشاب أن هذه الهموم لا يعالجها إلا الهروب من الواقع، والسفر إلى بلاد بعيدة، وبالفعل سافر وفي هذا السفر تعرف على شليين دعياه إلى أن يذهب معها إلى مرقص مشهور ولكنه بعيد يحتاج إلى سفر آخر أبعد واففقوا على موعد للسفر أما هما فقد سافرا وأما هو فلم يسافر معها لأنه كان نائماً من شدة التعب والسهرة، فلما كان من الغد جاءه

(١) روى الشطر الأول من الحديث مسلم برقم (٩٧٧)، وروي باقي الحديث الحاكم بسند صحيح صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٥٨٤).

خير عجيب، إن هذين الشابين اللذين اتفقا معه على السفر، قد ماتا وهما في الطريق إلى المعاصي، فأصيب الشاب بالاكْتئاب الشديد، ورجع فوراً إلى بلده فكانت فاجعة أخرى عندما دخل بيته حيث قال له أخوه لا تنس أن تعزي والدتك فإن خالتك قد توفاه الله بالأمس!! فصرخ هذا الشاب وصاح: يا الله!! ما هذا؟ ماذا يجري حولي؟! الموت يلاحقني، ماذا أفعل؟ وأصيب الشاب بانفعال شديد، فدفعه اثنان من أصحابه من أصدقاء السوء إلى أن يسافر معهما إلى دولة مجاورة ليستريح من هذه المصائب، فانطلق معهما فلما وصلوا إلى الحدود منع هذا الشاب من السفر وذلك لوجود خلل في جواز سفره، فقال له رفاقه: ارجع وأصلح الخلل ونحن في انتظارك في هذه البلد في فندق كذا، ورجع إلى بيته، وإذ بمكالمة هاتفية تأتيه في منتصف الليل، إن الشابين كانا مسرعين بالسيارة فصدمتهما شاحنة فماتا جميعاً!! عند ذلك بكى هذا الشاب بكاء مراراً وقال لنفسه: الموت أخذ كل هؤلاء فكيف لو نزل بي الموت وأنا على هذا الحال.

تنادينا المنية كل وقت فما نصغي إلى قول المنادي
فلو كنا جراداً لاتعظنا ولكننا أشد من الجراد

رجع هذا الشاب إلى الله وأعلنها توبة صادقة فأخرج عليه السجائر من جيبه وألقاها على الأرض، وذهب فاغتسل وصلى صلاة خاشعة باكية وعاش من ساعتها في رحاب الإيمان تائباً منيباً خائفاً وجللاً يتذكر بين الحين والآخر أن الله قد رحمه ولطف به وأمهله وأعطاه فرصة لكي يتوب إليه فسبحان من أمهله حتى يرجع إليه وتاب.

وهذه قصة أخرى تشير إلى لطف الله بعبده عاص يهديه الله بكلمة ثم يموت بعد التوبة بأيام ما هي قصته؟ حدثت هذه القصة في مدينة جدة، حيث كان هذا الشاب صاحب القصة قد ابتلي بجلساء السوء، فترك الصلوات وفعل الموبقات وارتكب

المعاصي والسيئات، وغرق في بحار الظلمات وقف يوماً بسيارته في أحد الطرقات، وإذ به يغازل إحدى البنات في شرفة من شرفات أحد المنازل، فمر به أحد الدعاة فرآه على تلك الحال المشينة وتلك الهيئة السيئة القبيحة فاقترب منه هذا الداعية وقال له: أسألك بالله لو كانت هذه البنت هي أختك ورأيتني أنا أفعل معها ذلك، ماذا كنت تصنع بي؟ فقال له: أذبحك، فقال له: إذا السلام عليكم ثم تركه وانطلق بسيارته، تحرك الإيمان في قلب هذا الشاب وسار خلف الشيخ مسرعاً حتى أدركه وقال له: قف يا شيخ فوقف فقال: هذا الكلام الذي قلته لي أعده علي مرة أخرى، فأعاد عليه الكلمات وقال لو أنها كانت أختك ماذا كنت تصنع ثم ذكر له قصة الشاب الذي جاء يستأذن رسول الله ﷺ في الزنا فبدأت الدموع تترقرق في عينيه، كان لا يعرف المسجد ما كان يعرف إلا الجرائم والمعاصي، والوالد كان قد عجز معه تماماً بعد هذا الحوار ورجع هذا الشاب إلى بيته واغتسل ولبس ملابس نظيفة ثم ذهب إلى المسجد وأخذ يكثر من تلاوة القرآن، ويكثر من الصلاة، ويكي في صلاته بكاء شديداً، وعرف عندئذ قيمة وجوده، ومن الله عليه بالتوبة، وفوجئ والده بأن الجيران يأتون إليه للتهنئة بعودة ابنه إلى الله وصلاته في المسجد مع الناس فما صدق الأب وقال أيفعل هذا؟ أيصدق أن يصلي هذا الابن الشقي في المسجد مع الناس؟ جاء وقت الغداء ولكن الشاب ما رجع إلى البيت لماذا؟ قالوا أنه صائم فجاء شيخ المسجد إليه وقال له: يا أخي إن لأهلك عليك حقاً، فقال: يا شيخ أنا منذ سنين طويلة ما ركعت لله ركعة، دعوني أملاً قلبي بحب ربي، ودعوني أستشعر السكينة والسعادة تتحرك في قلبي، والله إنني أذوق الآن لذات ما ذقتها في حياتي قط، أشعر بطمأنينة وراحة وقرب من الله وشوق إلى ذكره، أشعر الآن بطعم الحياة وطعم السعادة وبقي على حاله ذلك وفي اليوم الخامس توفاه الله، وبها لها من

خاتمة حسنة، قال رسول الله ﷺ: إن الله إذا أراد بعبد خيراً غسله: قيل: وما غسله؟ قال: أي يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه.

ولله در من قائل:

يا نفس توبي فإن الموت قدحانا	واعص الهوى فاهوى ما زال فتانا
أما ترين المنايا كيف تلقطنا	لقطاً فتلحق أولانا بأخرانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه	نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس مالي وللأموال أتركها	خلفي وأخرج من دنيائي عريانا
ما بالنا نتعamy عن مصائرنا	نسي بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصاً وهذا الدهر يزجرنا	كأن زاجرنا بالحرص أغراننا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن	كانت تحرله الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا	مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلوا مدائن كان العز مقرشها	واستفرشوا حفراً غيراً وقيعانا

٦- ميلاد جديد:

يقول أحد الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، لم يخطر بباله يوماً أنني سأعتنق الإسلام وذلك بسبب الدعايات الكاذبة التي سمعتها كثيراً عن الإسلام، ولكن الله أراد لي الهدى، وشاء لي أن أنال السعادة فقد مرض أحد أصدقائي مرضاً شديداً جداً، وكان في حالة سيئة للغاية، ولما رأيت ما به رق قلبي وارتعدت جوارحي، وذهبت إلى غرفة مجاورة وجلست وحدي وجعلت أدعو الله عز وجل أن يشفي صاحبي ودعوت دعاء كثيراً وبكيت كثيراً ومع كثرة البكاء والدعاء أحسست ساعتها أن قلبي منشرح لنور الإسلام، فأخذت أبحث عن الهداية في كل مكان ولا أدري أين أجدها وكيف السبيل

إليها جعلت أسير في الطرقات ولا أدري أين تمضي بي قدماي وعندما وصلت إلى وسط المدينة بدأت أسأل عن مكتب توعية الجاليات الإسلامية فلم أجد من المارة أحد يدلني عليه ووجدت أنني أسير وأواصل السير حتى وصلت إليه بدون أن يدلني أحد عليه، وعجبت لذلك وأسلمت بحمد الله ونطقت الشهادتين ما أجملها من عبارة ما أعظمها من كلمات حينما يردد الإنسان لا إله إلا الله محمد رسول الله، شعرت أن قلبي صار قلباً جديداً نظيفاً، وأحسست عند دخولي في الإسلام أنني ولدت من جديد^(١).

٧- أعجمي يهدي به الله عربياً:

يقول أمين فايز: أخبرني صديق أن شاباً اسمه خالد يسأل عني ففكرت ملياً وقلت في نفسي، من يكون خالد هذا؟ أهر ذلك الشاب السوري الذي قابلته في الجامعة منذ ثلاث سنوات؟ لعله هو لكن لماذا يريد؟ وأنا ما أحببته قط، وذلك لأنه كان بعيداً عن ربه تعالى لا يعرف صلاة ولا صيام، وكان متكبراً فخوراً سيء الخلق يتشبه بأهل الغرب حتى إذا رأته ظننته أمريكياً، فماذا يريد مني؟ قال: وعندما جاء إلى فوجئت بذلك الشاب ولكن بهيئة غير هيئته ها هو ذو لحية، وثياب تنم عن وقار، ووجهه يتلألأ نوراً وبهاء، لم أصدق ما أرى. أقبل عليّ وعانقني عناق المحب الذي يبحث عن حبيبه منذ سنين فسألته عن أحواله ورغباته فوجدت نفساً وثابة لفعل الخيرات وقلباً محباً لبذل الخير والعلم، وجدت نفسية تقية يسيل منها جواهر إيمانية وإشراقات براءة من النور عندئذ فهمت ما حدث لصاحبي، إن لطف الله تداركه وهذه ربه تبارك وتعالى إلى صراطه المستقيم وأيقظ قلبه من غفلة شديدة كان فيها.

(١) «لا إكراه في الدين» لمحمد ناصر الطويل (ص: ٢٠٠)، نقلاً عن المنهاج الأميني.

وأما قصة التزامه فهي غريبة عجيبة فقد تعرف على شاب أمريكي مسلم، وراح هذا الأمريكي يدعوه إلى الله ويحدثه عن الإسلام، ويدعوه إلى الرجوع إلى الله عز وجل، وإذ بخالد ينتفض ويستيقظ من غفلته ويقول في نفسه: الأمريكي لم يمض على إسلامه سنوات قليلة يدعوني إلى التوبة وقد كان الأخرى أن أدعوه للإسلام، إنه قدر الله أن يكون هذا الأمريكي سبباً في هداية خالد لقد نفّض عن قلبه غبار الغفلة، وبدأ حياة جديدة أراد فيها إرضاء الله لقد تغيرت حياته بشكل جذري وطلق زوجته اللاهية العابثة التي لم توافقه على ما هو فيه بل بدأت تصفه بالجنون وأبدله الله خيراً منها وقرر أن يعيش حياة إسلامية، في هذه المدينة (سانياغو) وبدأ حياة جديدة مع الكفاح والصبر والثبات على الدين فثبت الله المهتدين من المسلمين^(١).

٨- داعية أبكم ودعوة مؤثرة:

يقول الشيخ محمد المسند: هذه من عجائب القصص ولولا أن صاحبها كتبها لي بنفسه، ما ظننت أن تحدث، يقول صاحب القصة وهو من أهل المدينة النبوية يقول: أنا شاب في السابعة والثلاثين من عمري، متزوج ولي أولاد، ارتكبت كل ما حرم الله من الموبقات، أما الصلاة فكنت لا أؤديها مع الجماعة إلا في المناسبات فقط بمجاملة للآخرين، والسبب أني كنت أصاحب الأشرار والمشعوذين فكان الشيطان ملازماً لي في أكثر الأوقات، كان لي ولد في السابعة من عمره اسمه مروان أصم أبكم لكنه قد رضع الإيمان من صدر أمه المؤمنة، كنت ذات ليلة أنا وابني مروان في البيت كنت أخطط ماذا أفعل أنا والأصحاب وأين سنذهب، كان الوقت بعد صلاة المغرب فإذا ابني مروان

(١) «مجلة البيان»، العدد ٣٧ لعام ١٩٩١ (ص: ٩٧-٩٨).

يكلمني بالإشارات المفهومة بيني وبينه ويشير لي: لماذا يا أبت لا تصلي؟ ثم أخذ يرفع يده إلى السماء ويهددني بأن الله يراك، وكان ابني هذا يراني في بعض الأحيان وأنا أفعل بعض المنكرات، فتعجبت من قوله، وأخذ لينني يبكي أمامي، فأخذته إلى جانبي ولكنه هرب مني، وبعد فترة قصيرة ذهب إلى صنبور الماء وتوضأ وكان لا يحسن الوضوء، لكنه تعلم ذلك من أمه التي كانت تنصحنني كثيرًا ولكن دون فائدة، وكانت من حفظة كتاب الله، ثم دخل علي ابني الأصم الأيكم وأشار إلي أن انتظر قليلاً فإذا به يصلي أمامي ثم قام بعد ذلك وأحضر المصحف الشريف ووضع أمامه وفتحه مباشرة دون أن يقلب الأوراق ووضع إصبعه على هذه الآية من سورة مريم ﴿يَكَاَبُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٥). ثم أجهش بالبكاء وبكيت معه طويلاً فقام ومسح الدمع من عيني، ثم قبل رأسي ويدي وقال لي بالإشارة المتبادلة بيني وبينه ما معناه: صل يا والدي قبل أن توضع في التراب وتكون رهين العذاب.

وكنت والله العظيم في دهشة وخوف لا يعلمه إلا الله فقممت على الفور بإضاءة أنوار البيت جميعها، وكان ابني مروان هذا يلاحقني من غرفة إلى غرفة، وينظر إلي باستغراب وقال لي: دع الأنوار وهيا إلى المسجد الكبير يقصد المسجد النبوي الشريف فقلت له: بل نذهب إلى المسجد المجاور لمتزنا، فأبى إلا الحرم النبوي فأخذته إلى هناك، وأنا في خوف شديد وكانت نظراته لا تفارقني البتة، ودخلنا الروضة الشريفة وكانت مليئة بالناس وأقيم لصلاة العشاء، وإذا بإمام الحرم يقرأ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلَيْهِمْ (الزُّور: ٢١). فلم أتمالك نفسي من البكاء ومروان بجاني يبكي لبكائي وفي أثناء الصلاة أخرج منديلًا ومسح به دموعي، وظلمت أبكي وهو يمسح دموعي حتى أنني جلست في الحرم لمدة ساعة كاملة حتى قال لي مروان كفى يا أبي عن البكاء، وعدنا إلى المنزل فكانت هذه الليالي من أعظم الليالي عندي، إذ ولدت فيها من جديد، وحضرت زوجتي وحضر أولادي فقال لهم ابني: إن أبي صلى في الحرم ففرحت زوجتي، بهذا الخبر إذ هو ثمرة تربيتها الحسنة، وقصصت عليها ما جرى بيني وبين مروان، وقلت لها أسألك بالله هل أوعزت له بشيء؟ فأقسمت بالله أنها ما فعلت شيئاً.

ثم قالت لي: الحمد لله على هذه الهداية. وكانت تلك الليلة من أروع الليالي، وأنا الآن بحمد الله لا تفوتني صلاة الجماعة في المسجد إلا من عذر، وقد هجرت رفقاء السوء جميعاً، وذقت طعم الإيمان وأصبحت أعيش في سعادة مع زوجتي وأولادي فالحمد لله الذي هداني على يد ولدي^(١).

٩- إشراقه نور:

حدثني أحد الإخوة الدعاة المحققين فقال: إن شاباً مشركاً في مدينته رأى رؤيا وسأل عن تأويلها فلم يجد من يؤولها له، فيجعل يسأل حتى دله الناس على قال: فجاء وحدثني بما رأى فقال: رأيت كأني ألبس ثياباً قدرة جداً، متسخة جداً ثم نظرت فجأة فإذا بمجموعة من الشباب قد تحلقوا في حلقة ويلبسون ثياباً ناصعة البياض فنظرت ووجدت كأن رجلاً يجلس في وسط هذه الحلقة وهم يعظمونه ويوقرونه قال: فبينما أنا أنظر إليهم تقدم إلي واحد منهم وقال لي: أما آن لك أن تنظف وتنظفهم؟ فسألتهم عن

(١) «الطائف وغرائب» من الإنترنت للدكتور محمد غنيم (٢١٤-٢١٧)، بتصرف يسير.

الرجل الذي يجلس في وسط الحلقة فقيل لي: هذا هو الذي يقولون عنه صلى الله عليه وسلم، يقول: ثم طلب مني الشاب تفسير هذه الرؤيا التي رآها فقلت: وهل هذه الرؤيا تحتاج إلى تفسير؟! إنها واضحة جدًا، ومعناها أنه لا بد أن تترك كفرك وشركك وتدخل في دين الإسلام فأعرض عني، وجعل يجادلني، وحاولت إقناعه ببطلان ما هو عليه وذهبت به إلى بعض الإخوة المتخصصين في مجال العقائد، فحاوره ولكن دون جدوى ثم انصرف ونسيت ما كان من أمره وبعد مرور أكثر من سنة وجدته يتصل بي أمس فقط يقول لي: أبشرك لقد أسلمت، ودخلت في دين الله وأشهرت إسلامي في الأزهر الشريف وسوف أزورك قريبًا، قلت سبحان من هذه برؤيا رآها.

١٠- سبحان من أحيا هذه القلوب:

هذه قلوب كانت ميتة ضائعة تائهة فتأثر بها الله بلطفه وألهمها هداها، وأنقلها من عماها وآناها تقواها فصار أصحابها أئمة في الدين فسبحان مقلب القلوب وأذكر هنا المواقف التالية

١- بشر بن الحارث الحافض:

يقول ابن قدامة عليه رحمته الله: حكى أن بشرًا كان في زمن لهو في داره، وعنده رفقاؤه يشربون ويطربون، فاجتاز بهم رجل من الصالحين فدق الباب، فخرجت إليه جارية، فقال لها: صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ فقلت: بل حر، فقال: صدقت، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية، وترك اللهو والطرب، فسمع بشر محاورتها، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولى الرجل، فقال للجارية ويحك من كلمك على الباب؟ فأخبرته بما جرى، فقال أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتيعه بشر، حتى لحقه،

فقال له: يا سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد علي الكلام فأعاده عليه فبكى بشراً وقال: بل عبد عبد... وتاب إلى الله تعالى^(١).

٢- داود الطائي:

ذكر ابن قدامة بسنده أن داود الطائي كان بدء توبته أنه دخل مقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه لقاءك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كل يوم وليلة وتلى كما تبلى وأنت حبيب

وقال أبو نعيم الفضيل بن دكين: قدم داود من السواد ولا يفقه فلم يزل يتعلم ويتعبد حتى ساد أهل الكوفة^(٢).

٣- الفضيل بن عياض:

ذكر الإمام ابن قدامة بسنده أن الفضيل بن عياض كان يقطع الطريق وحده، فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بواقلة قد انتهت إليه، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يقال له: الفضيل، قال: فسمع الفضيل فأرعد، فقال: يا قوم أنا الفضيل جوزوا والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبداً، فرجع عما كان عليه وروي من طريق آخر أنه أضافهم تلك الليلة، وقال: أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتادهم علفاً، ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

(١) «كتاب التواين» بتصرف يسير (١٣٥-١٣٦).

(٢) نفس المصدر (١٣٣).

فَخَشَعَ قُلُوبَهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴿الْمُتَذَكِّرِينَ: ١٦﴾. قال بلى: والله قد آن فكان هذا مبتدأ توبته (١).

أحبتني إخوتي كم من ضال هداه الله وكم من غافل ميت القلب أحياه !! وكم من معرض معاند جبار هداه ربه فصار من أولياء الله !!.

ذلكم لنعلم أن الله على كل شيء قدير وأنه رؤوف رحيم، عزيز حكيم، لا يكون في ملكه إلا ما يريد. ولا يحدث في كونه إلا ما يشاء سبحانه جل جلاله فاستهده يهدك، واستغفره يغفر لك، وتب إليه يتب عليك، ألم تر أن من لطفه إمهالك وتركك في هذه الدنيا لعلك تتوب، لعلك تتقرب إليه، وتستجيب له، ولو شاء لأنزل بك بأسه مع أول ذنب تذنبه، وهو يسمعك ويراك فلا تغتر بالأموال، وسارع بالتوبة إلى ذي الجلال، فقد دعاك ربك إليه فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ ﴿التَّوْبَةُ: ٨﴾. دعانا ربنا إلى السعادة والفلاح، والفوز والصلاح فقال جل جلاله ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿النُّزُل: ٣١﴾. فتب إلى ربك لعلك تفلح اللهم تب علينا توبة نصوحا ترضيك عنا يارب.



(١) «التوابين» لابن قدامة المقدسي (١٣٣-١٣٤)

